ثورة التناقضات في بلاد الأرز

سليم معوّض

في أواسط شهر شباط من عام 2005، وعلى أثر عملية اغتيال رئيس وزراء لبنان الأسبق رفيق الحريري وسلسلة الاغتيالات الأخرى التي اتهم بها النظام السوري، انطلقت في لبنان حركة شعبية عارمة سارت وراء نعش الشهيد وجاهرت بمطالب عدّة من أهمها الحريّة والسيادة وانسحاب الجيش السوري من لبنان. أطلق حينها العالم الغربي وبالتحديد محطة الـ«بي بي سي» على هذه الحركة في أول أيّامها اسم «الثورة الحمراء» نسبة للمكوّن الأحمر في العلم اللبناني الذي يجسّد دماء الشهداء. لينتهي المطاف بالثبات على تسمية نهائية مستوحاة من مكوّن آخر من نفس العلم وهو الأرزة اللبنانية التي ترمز للخلود لتولد «ثورة الأرز».

تصاعدتْ وتيرة هذه الديناميكية، فسرعان ما تحوّلت إلى حراك شعبي من قبل شباب متحمّس اتّخذَ من ساحة الشهداء في وسط بيروت، أو ما عرف حينذاك بـ«ساحة الحريّة»، منصّة للتعبير عن غضبه جرّاء اغتيال الرئيس رفيق الحريري، وللمطالبة بانسحاب الجيش السوري ونظامه من لبنان، إذ اعتبر المتّهم الأوّل وراء الجريمة وجرائم أخرى، والمتّهم بفقدان السيادة على المؤسسات اللبنانية. أتت ردّة الفعل من قبل حلفاء النظام السوري في لبنان فغصّت الساحة الملاصقة لساحة الحرية الخاصّة بالمطالبين بانسحاب الجيش السوري،غصّت بأكثر من مليون لبناني لتوجيه الشكر لهذه الأخيرة لما لها من فضل على الوطن!!!. استفزّ هذا الشكر قاطني «ساحة الحرية» فحشدوا بعد أقل من أسبوع مظاهرة مقابلة جمعت أكثر من مليون لبناني آخر ليطالبوا بسقوط رئيس الجمهورية المدافع عن الوجود العسكري السوري وتبرئته من الجرائم. انسحب الجيش السوري من لبنان وبقي رئيس الجمهورية في منصبه بالرغم من مطالبة اكثر من ربع الشعب اللبناني بتنحيه.

اتصل بي الكثيرون من الزملاء الشباب الناشطين في مجال حقوق الإنسان والعمل السياسي لملاقاتِهم في «ساحة الشهداء» للمشاركة ببواكير الثورة والتحضير لتغيير طالما كنا حلمنا به وعملنا لأجله. كان جوابي يومها الرفض، وبأن هذه ليست

بالثـورة المبتغـاة إنما ثورة من قبل مجموعة تهـدف لنفي مجموعة أخرى. ولن تأتي بثمارهـا مـا دام أمـراء الحرب هم الناطقون باسـمها ومـا دام رافضوها فـي المقابل يشـكرون من احتل الأرض اللبنانية، وانتهك حق الشـعب اللبناني على مدى عقود. آنـذاك تابعت الأحداث عبر شاشـة التلفاز وراح ينتابني شـعور بالألـم، لم يخلُ من الدمـع والحسـرة على عدم تمكّني من المشـاركة في هـذا الحراك الشـعبي المؤثر. فكتبـت مقالـة بتاريخ الخامس من أيـار 2005 عن عدم جدوى هذه الثورة، نشـرت تحـت عنوان «اتّهـم المواطن اللبنانـي» الذي اندفـع وراء الحـدث وصانعيه بعاطفة جياشة خلت من أي نظرة عقلانية للأمور[1].

ربمـا أفضـل طريقة لإثبات شـهادة حيّـة على واقعـة معيّنة ومـدى صدقيّة هذه الشهادة هي العودة إلى ما هو مدوّن حول مضمونِها وقت حدوثها.

كنت قد أشـرت في تلك المقالة بأنه وبالرغم من الشـعور بالنشوة العارمة التي عمّـت لبنان من جراء انسـحاب الجيش السـوري من على أراضيـه، إلا أنه لا يمكن التسـليم بـأن ما حصـل حينها هو مقدمة لتغييـر طويل الأمد. وطرحت جملة أسـئلة تمحـورت حـول مصدر هـذا التغيير، مدى شـرعية صانعيـه وخاصة قـدرة المواطن اللبناني على حسم هذا التغيير وتأمين مقوّمات استدامته.

وكأنـي بذلك أردت تبرير قراري بعدم المشـاركة بالثـورة المعلنة والمبني على إدراك مسـبق بانعـدام الثقـة بالنخـب السياسـية الداعيـة لهـذا التغيير، وعـدم تمكّن المواطن من استيعابه والمحافظة عليه بعد انسحاب العواطف والغضب من النفوس. كنـت خائفاً من نجاح الثورة وأنا المؤمن بضرورة الحراك الشـعبي من أجل التغيير، والمتحوّل من ناشط اجتماعي إلى مُشاهد منكفئ في منزله أمام شاشة التلفاز. ولكن مرور الزمن أعفاني من عقدة الذنب هذه لِما آلت إليه أمور هذه الثورة.

أكملـت المقالـة لأحاجج بأن هذا التغييـر آتٍ من الخارج، وهـو ردة فعل من فريـق على فريـق، وبأن من نادى بانسـحاب جيشٍ أجنبي عن أرض بـلاده، إنما هو نفسـه الذي تحالف مع المحتل، وفي كل مرّة يغيّر اتجاهَه وخطَّه السياسـي ليحمي مصالحَـه الشـخصيّة، قابلـه غيـاب مواطن يحاسـبه على مـا اقترف مـن فظائع بحق

(1) http://fride.org/download/COM_CiudLibanes_ENG_may05.pdf

الوطـن. كما وشـدّدْت علـى أنه في خضـمّ موجة التغييـر القائمة في لبنـان، يخاطر الغـرب ومعـه جزء من الشـعب اللبنانـي الداعم لهـذا الحراك في المسـاهمة بتثبيت الوجوه السياسـية نفسـها المسـيطرة على السـاحة السياسـية، وذلك من خلال تأمين الدعم للمشـبوهين الدائمين كوسـطاء تغييـر. أنهيت المقالة بمقطع سـاخر عن دور المواطـن بالمطالبـة بالتغيير عبر توكيلـه هذا الأمر للخارج ورويـت طرفة مبكية عن عاملة أجنبية من التابعية السـرلنكية وقفت في سـاحة الحرية بجانب سـيدتها وبيدها يافطة كتب عليها Syria Out وهتفت «مدام وانتس سـيريا آوت» أي بما معناه المدام تريد انسحاب سورية... فكم هو مستعار هذا التغيير؟

اليوم وبعد تسـع سـنوات على انطلاق الثورة تأكّد لي بأن أي «ثورة» في لبنان يجـب أن تبدأ بثورة «الإنسـان» قبـل ثورة «المواطـن» المفقود من البلـد أو المتعثّرة ولادتُـه أو المؤجّلـة إلى مدى بعيـد. ربما ما قاله الفيلسـوف الألماني إمانيول كانت في القرن الثامن عشر ما زال ينطبق على اللبنانيين في بداية القرن الواحد والعشرين، ومفـاده بأن الشـعوب هي بحاجة للتنويـر أكثر مـن حاجتِها للثورات. ربمـا اللبناني بحاجـة للتنويـر كي يتخلّص مـن جملة تناقضاتِـه الداخليـة، والتي تتمثّـل بالمطالبة بالشيء ونقيضه. يُطالب بالديمقراطية ويجدّد نخبَه السياسية المتهمة بالفساد وجرائم الحـرب، والمتربعـة علـى عـرش الحكم منذ عقـود. يُطالـب بالحريّة ولا يحاسـب منتهكيهـا، يُطالب بالعلمانية، وينتخب ممثّليه على أسـاس التوزيع الطائفي للمقاعد. يطالـب بالأمـن ويتّهم القوّات العسـكرية الشـرعية بالخيانة ويطلـب بذبحها او يلجأ لحركة مسلحة خارج الشرعية لحمايته من الإرهاب.

أكثـر ما يؤلِمُنـي في ما يتعلّق بنجاح «ثـورة الأرز» أو فشـلها أو تأجيلها هو ما أصبحـت عليه نخـب المجتمـع المدني اللبنانـي التي نـادت بالثورة ومنهـم اللذين اتّصلـوا بي لمشـاركتهم في عملية التغيير. معظمُهم ركـب موجة زمن ما بعد ثورات «الربيع العربي» التي أتت بعد «ثورة الأرز» لتراهم يوقّعون عقود عمل مع مؤسسات أجنبيـة غير حكوميـة هادفة إلى تحصين التغيير الذي أفرزتْـه تلك الثورات.منهم من يعمل لإعادة دمج الثوّار في القوى الأمنية في مرحلة ما بعد الثورة في ليبيا، أو تدعيم المجتمع المدني التونسـي باسـتخدام الإعلام الاجتماعي للتوعية على الديمقراطية، أو الدفاع عن حقوق الناشـطين في مصر أو دعم قضية المعارضة السـورية. وكأنهم

بذلك انتهوا من عملية التغيير التي دعوا إليها أو شاركوا بصنعها عندما انطووا تحت لواء «ثورة الأرز»، وحان الوقت كي يشاركوا العالم العربي معرفتهم بإنجاح الثورات، وتحويل التغيير المنشود من عابر إلى مستديم. من حقّهم السعي وراء فرص العمل كناشطين اجتماعيين، ومن حقهم التوسّع خارج الحدود لمناصرة شعوب أخرى في السعي إلى الكرامة، فأنا متواجد في إفريقيا للغايات نفسها، ولكن من أقل واجباتِهم القيام بمراجعة ذاتية وجماعية ومسار تقييمي لتبيان نقاط إخفاق الثورة أو نجاحها المتعلّق ليس فقط بانسحاب الجيش السوري من لبنان إنما بالمفاهيم التي دعوا إليها مثل الحرية والسيادة والحفاظ على المؤسّسات. هكذا مراجعة نقدية تمكّنهم ومعهم المواطن من تأمين الجهوزية اللازمة في حال سمح للبنان بتجربة ثورية أخرى حقيقية هذه المرّة، وهادفة لتغيير جذري لكلّ ما يرفضه هؤلاء الشباب من طائفية وزبائنية وتبعية وتهميش من على الساحة السياسية العامة.

كنا قد شهدنا كيف أن القيّمين على «ثورة الأرز» من نُخَب سياسية تقليدية راحوا يهلعون كلما اعتلى شاب من مناصريهم خشبة المسرح ليطالب بالتغيير، فيتجاوب الجمهور مع خطابه بطريقة ليس لها مثيل. فحسمت تلك النخب أمرها واستأذنت الشباب الجامِح لتستعيد مكانَه على المسرح خوفاً من فقدانِها مواقعها لمصلحة شباب لم تلوّث الحرب الأهلية أيديهم ولم ينطق لسانُهم يوما بتصريح طائفي.

أمام هذه الظاهرة أود أن أستأذن المفكر اللبناني الشهيد سمير قصير، الذي آمن بتلك الثورة حتى الشهادة، وأحوّر جملة من جمله الخالدة والمحفورة على حائط نصبه في بيروت: «لقد انتهت المسرحية، يستطيع الشخص أن يبقى على المسرح. لا هَمّ فلا أحد يسمعُه.» لأدعو كل شاب وشابة من الذين آمنوا بالثورة أو ما زالوا يؤمنون بها أن يحاسبوا من أقصاهم عن ثورتهم. وإلى حينها، المسرحية مستمرة... يستطيع الزعيم أن يبقى على المسرح. لا همّ فلا أحد يحاسُبه.